الحلقة (١٩)

في هذه الحلقة سنبدأ بقراءة كلام ابن أبي العز، وقبله كلام الماتن الطحاوي رحمه الله في الكلام عن مسألة الكلام، وتحرير الخلاف فيها والرد على المنكرين، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة في القول بهذه الصفة، صفة الكلام، وأن القرآن كلام الله وأنه منزل غير مخلوق.

والطحاوي رحمه الله يقول "**وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا وأنزله على رسوله وحيا وصدقه المؤمنون علي ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام بشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} فلما أوعد الله بسقر لمن {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} ، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر**". هذا كلام الطحاوي، يقول ابن أبي العز "فهذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب ومن السنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة، وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة" ونحن ذكرنا في المقدمة على صفة الكلام أنا ذكرنا أربعة أو خمسة فرق أو خمسة أقوال هي الأقوال المشهورة لأن بعضها يدخل في بعض، أو أنها أقوال لا داعي لذكرها.

يقول ابن أبي العز (وقد افترقت الناس في مسألة الكلام على تسعه أقوال:

أحدها: **أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني**، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة المتفلسفة.

وثانيها: **أنه مخلوق، خلقه الله منفصل عنه**، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: **أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة**، وهذا قول ابن كلاب من وافقه كالأشعري وغيره.

رابعها: **أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل**، وهذا قول طائفة من أهل الكلام، **يقول ابن أبي العز ومن أهل الحديث**)، أهل الحديث لا يقولون بهذا القول، إذ يستبعد على من اشتغل بالحديث بأن يقول بهذا القول المخالف لأصل من أصول أهل السنة والجماعة كما جاءت عن رسول الله.

خامسها: **أنه حروف وأصوات ولكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما**، وهذا قول الكرامية، وهذا يعيدنا إلى المسألة الخطيرة التي تكلمنا عنها في مسألة تسلسل الحوادث.

سادسها: **أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته**، وهذا يقوله به صاحب المعتبر أبو البركات هبة الله الطبيب الفيلسوف، ويميل إليه الرازي فخر الدين في المطالب العالية.

وسابع الأقوال: **أن كلامه يتضمن معنىً قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره**، وهذا قول أبي منصور الماتوريدي إمام المتكلمين.

وثامنها: **أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات**، وهذا قول أبي المعالي الجويني ومن تبعه.

التاسع: **أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً** وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وقول الشيخ الطحاوي رحمه الله: "وإن القرآن كلام الله بكسر الهمزة عطفٌ على قوله إن الله واحد لا شريك له كما بدأ بذلك متنه، وإن محمدا عبده ورسوله المصطفى وكسر همزة إن في هذه المواضيع الثلاثة لأنها معمول القول، أعني قوله في أول كلامه "**نقول في توحيد الله**" إلى أن قال: "**وإن القرآن كلامه**".

وقوله "**كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا**" ردا على المعتزلة وغيرهم، فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدأ منه سبحانه وتعالى، كما تقدم قولهم: وإضافته إليه إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله، يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقولهم: ظاهر البطلان فإن المضاف إلى الله سبحانه إما معانٍ أو إضافة أعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له كبيت الله وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره، فإن هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقا، إذن يتحصل لنا من هذا الكلام أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان:

النوع الأول: إضافة أعيان كقولك بيت الله وناقة الله وعبد الله **وهذه إضافة للتشريف، وهي مخلوقة لله سبحانه وتعالى**، فالكعبة مخلوقة لله والعبد من خلق الله والناقة ناقة صالح هي من مخلوقات الله، ناقة الله هي من خلق الله، **فإضافة الأعيان هي إضافة المخلوق الى خالقه من باب التشريف**.

النوع الثاني: إضافة المعاني هي **من باب الصفة للموصوف** كقولك رحمة الله وعزة الله وكبرياء الله سبحانه وتعالى، هذه الإضافة بخلاف الإضافة الأولى، فهي إضافة المعاني، كرحمة الله وعزة الله وقدرة الله.

إذن يتبين هنا من هذا الكلام الإضافة إلى الله سبحانه وتعالى وأنها تنقسم **إلى نوعين**:

الأول: نوع إضافة أعيان وهي للتشريف،

أما الثانية: إضافة معانٍ إلى الله وهي من قبل الصفة للموصوف، لا تنفك عنه، وليست مخلوقة له، بل هي من باب الصفة للموصوف، وليست من المخلوقات.

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، قال الله تعالى {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا}، فكان عبّاد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم أيضا، لم ينفوا صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، فلم يقولوا ربك أيضاً لا يتكلم، يقول الله تعالى عن العجل {أَفَلَا

يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}فعُلم أن نفي رجع القول ونفي التكليم نقص يُستدل به على عدم أولوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم، كما ذكر في ما مضى، يلزم من إثبات صفة الكلام على ما جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها يلزم منه عندهم التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا أنه تعالى كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى يقول {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم}فنحن نؤمن أنه الأيدي تتكلم والأرجل تشهد، فنحن نؤمن أنها تكلم، ولكن لا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمدة على مقاطع الحروف، إذن نثبت كلام الحجر، ونثبت تسبيح الحصى، ونؤمن ونصدق ونجزم ونعتقد بصدق ذلك أن الجلود تتكلم وتنطق، وأن الأيدي تنطق، من أنطقها؟ الله سبحانه وتعالى، كيف؟ لا نعلم كيف، هذا في حق المخلوقات، الأيدي مخلوقة والحصى مخلوقة، كل هذه من المخلوقات، ونثبت لها صفة الكلام على ما جاء في النص الشريف في القرآن الكريم نثبته بلا كيف، فما بالك بحق الخالق سبحانه وتعالى، فإننا نثبت له صفة الكلام على وجه يليق بجلاله، فتنتفي حجة المعتزلة ودعواهم تنزيه الباري عن حلول الحوادث.

وإلى هذا أشار الشيخ الطحاوي رحمه الله "**منه بدأ بلا كيفية قولا**" أي ظهر منه ولا يدرى كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله "**قولا**" أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز، كما ذكرنا لكم سابقا تنزلاً في قوله تعالى {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى}،ثبت الكلام من الله لموسى، فأكد بذلك قوله {تَكْلِيمًا}فماذا بعد الحق إلا الضلال.

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو ابن العلاء، وقد أوردت هذا سابقا أحد القراء السبعة، أريد أن تقرأ وكلم الله موسى تكليما، بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمر هب إني قرأتها كذا، فما تفعل بقول الله {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه} فبهت المعتزلي.

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم يقول الله تعالى {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيم}وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بين أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيم}قال فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره عليهم في ديارهم**). الحديث رواه ابن ماجة وغيره.

في هذا الحديث إثبات صفة الكلام التي نحن بصدد الكلام عنها، وإثبات رؤية الله عز وجل في الجنة، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا الكلام أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً وقال تعالى{ إِنَّ

الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ} فأهانهم الله بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وقد أخبر في الآية الأخرى أنه قال تعالى لهم في النار {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}فلو كان لا يكلم عباده المؤمنون لكانوا هم وأعداؤهم سواء، فهنا يحصل تمايز، ولم يكن في تخصيص أعدائه بذلك أنه لا يكلمهم فائدة أصلا، يقول البخاري رحمه الله في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث، فأفضل نعيم أهل الجنة؛ رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلا نعيمها وأفضله، الذي ما طابت لأهلها إلا به، يعني بكلام الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة.